تجليات الجسد في اللغة الإنسانية
من منظور اللسانيات الإدراكية

إعداد

إبراهيم بن منصور بن محمد التركي

الأستاذ في كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية

جامعة القصيم

• ملخص:

يحاول هذا البحث أن يكشف عن ارتباط الإدراك الإنساني بالجانب الحسي والجسدي عند الإنسان، وهو ما يُعرف باسم (الجسدنة). وقد قام هذا البحث بعرض هذا الموضوع من خلال ثلاثة محاور، تحدّث المحور الأول منها عن علاقة الجسد بالعقل في اللسانيات الإدراكية، مؤكداً أن الجسد يتأثر ويؤثر في تشكيل المدركات في العقل الإنساني. وجاء المحور الثاني ليوضّح كيف تصبح الاستعارة مهمة في صناعة المفاهيم الإنسانية من خلال كون الاستعارة عملية تقاطع بين مجالين، أحدهما مرتبط بالتجربة الجسدية عند الإنسان، بحيث يصنع الإنسان عدداً من أفكاره ومفاهيمه من خلال الاستعارة. ثم جاء المحور الثالث وتحدّث عن مبدأ (تمييز الشكل من الخلفية) في المدرك بصرياً، كاشفاً عن تجلّي ذلك في اللغة الإنسانية سواء في مستوى تركيبها الأصلي أو مستواها الأدبي والبلاغي.

الكلمات المفاتيح: الجسدنة ، اللسانيات الإدراكية، الاستعارة، الشكل والخلفية.

*****

• مدخل :

سأحاول في السطور الآتية بيان كيف يتغلغل الإدراك الحسي والجسدي في لغة الإنسان، وكيف اعتمدتْ على ذلك بعض الدراسات الإدراكية في مقاربتها للغة عموماً، ولأدبية اللغة بشكل أخص، وذلك عبر تسليط الضوء على هذا الموضوع من خلال ثلاثة عنوانات، أتحدث في أولها عن الجسد في منظور اللسانيات الإدراكية، وفي ثانيها عن الجسدنة والاستعارة في تصورات اللسانيات الإدراكية، ثم أعرض ثالثاً ثنائية الشكل والخلفية ودورها في التشكّل اللغوي، ثم أقدم خلاصة في نهاية هذا البحث.

أولاً: الجسد في اللسانيات الإدراكية :

تقرّر العلوم الإدراكية أن ثمة مسارات يتحقق من خلالها الإدراك الإنساني، وهذه المسارات تنعكس على حياة الإنسان، وتتأثر بها أفعاله وأقواله وسلوكياته. فعلى سبيل المثال، تقرر العلوم الإدراكية أن قدراً كبيراً من الإدراك الإنساني يتحقق عن طريق الجسد، وهذا يعني تجسيد الإدراك في اللغة الإنسانية، أي كونه مبنياً على مدركات حسية تتبدّى في لغة الإنسان بشكل حتمي، وتعمل لغة الإنسان في مخاطباته ومكاتباته وفقاً لذلك، وهذا هو ما يُعرف بـ Embodiment، أو (الجَسْدنة) كما يترجمها بعض الباحثين.

إن هذه الفكرة تعدّ مركزية وأساسية في اللسانيات الإدراكية، حيث يذهب باحثو اللسانيات الإدراكية إلى أن «جَسْدنة خبرتنا تعني أنها مبنية جزئياً على طبيعة الأجساد لدينا ومن قِبل منظومتنا العصبية، ولها نتائج على الإدراك. بعبارة أخرى: إن المفاهيم التي نستطيع الوصول إليها، والطبيعة في الواقع الذي نفكّر ونحدّث عنه هي وظيفة تجسيدنا، ولا يسعنا إلا أن نتحدث عما يمكننا إدراكه وتصوره، والأشياء التي يمكن أن ندركها

ونتصورها مستمدة من التجربة المجسدة، ومن وجهة النظر هذه يجب أن يتحمّل العقل البشري بصمة التجربة المجسّدة»[1].

وتعني (الجسدنة) في العلوم الإدراكية تأثُّر وتأثير تجارب الشخص الجسدية في إدراكه اليومي، فكلنا نحس بالارتباط الحميم بين من نحن وأجسامنا، فمثلا يعدّ تعرّض جسدنا للضرب مؤثراً في صناعة مفهومنا للألم، وحركتنا وتجوّلنا قد يصنع لدينا مفهوم السعادة، فهذا الإدراكات والمفاهيم إنما صنعتها تجربتنا الحسية، فالجسد هنا هو مصدر مثل هذه المعاني والمشاعر[2].

وهذا يعني أن الإدراك والمعرفة الإنسانية «قائمة على أنواع التجارب الفيزيائية التي تكون لنا بحكم امتلاكنا لأجساد ذات قدرات حسية حركية متنوعة، وتتجذر الواحدة من هذه القدرات الحسية الحركية بدورها في إطار عام جامع هو السياق البيولوجي والنفسي والثقافي... إن العمليات الحسية والحركية أي الإدراك والعمل، لا ينفك الواحد منهما عن الآخر في العرفنة المعيشة، وعدم الفكاك بينهما قائم على أن الواحد منهما يتحدّد بالآخر، فالأجساد في اشتغالها في المحيط تعيش تناوباً مستمرا بين الإدراك والعمل، فتنقّلها في الفضاء يجعلها تدرك أشياء مختلفة ينجرّ عن الواحد منها عمل مختلف، والعمل الواحد ينجر عنه إدراك ما وهكذا دواليك»[3].

إن هذا يعني أن (الجسدنة) ترى أن الجسد الإنساني بوضعه الحركي (الفيزيائي) والخَلْقي (البيولوجي) يؤثّر ويتأثر في الوقت نفسه بالدماغ[4]، لقد «تخلّص الباحثون من اعتبار الجسد مجرد حاوية للدماغ، أو مجرد مساعد مساهم

(١) (طبيعة اللسانيات الإدراكية)، ففيان ايفانز، وميلاني جرين، ترجمة: عبده العزيزي.، مجلة فصول، العدد ١٠٠، ص ٥٤ .

(2) Look: *Embodiment and Cognitive Science*, Raymond W. Gibbs, Jr, Cambridge University Press, 2005.p 14.

(٣) اللغة والجسد ، الأزهر الزناد ، مركز النشر الجامعي ، تونس ٢٠١٧م، ص ٩ و ١٠ .

(4) Look: *Embodiment and Cognitive Science*, Raymond W. Gibbs, Jr, Cambridge University Press, 2005.p 14.

في أنشطة الدماغ، ليستقر الأمر على أن الجسد شريك ملازم للدماغ في إنتاج العرفنة (الإدراك)، فالجسد يتضمّن منظومات بها يكون تحديد العرفنة بحكم ما له من حركية فاعلة أو منفعلة: (التنقّل في الفضاء، حركات الأعضاء، مواقعه في الفضاء... إلخ)، وبها يكون تنظيم المعلومات، وبها يكون تحديد الخصائص الحسية المتفرّدة التي تنشأ بها التجربة الإدراكية المخصوصة. فبعد أن كان الجسد والدماغ منفصلين في التصوّر الكلاسيكي صارا يتقاسمان مهمة العرفنة (الإدراك)، ويتشاركان في العمليات التي لا تكون من الواحد منهما منفصلاً عن الآخر»[1].

إن «القول بأن المعنى (مجسْدَن) يعني أن المعنى والفهم والاستدلال يعتمد بشكل مباشر على كيفية عمل أجسامنا وأدمغتنا، وعلى أنماط تفاعلاتنا الجسدية مع العالم»[2].

وهذه الفكرة - فكرة (الجسدنة) - قد أصبحت من القوة بحيث صارت نقطة اتفاق والتقاء بين مجموعة مختلفة من الباحثين في المجالات المتقاطعة والمختلفة، كالأحياء والطب، والأدب وتاريخ الفنون، والدراسات الدينية والفلسفة[3].

لقد «أصبح الجسد موضوعاً يحظى بشعبية كبيرة، حتى إنه اكتسح أغلب مجالات الدراسة، بما في ذلك الفلسفة والدين وعلم النفس والعلم المعرفي والأنثروبولوجيا وعلم الأعصاب وعلم الاجتماع واللسانيات والنظرية النسوية، وكل أنواع الفنون، فكأننا أفقنا أخيراً وتنبّهنا إلى أن أجسادنا هي ما يصلنا بعالمنا وبالآخرين»[4].

(١) اللغة والجسد، الأزهر الزناد، مركز النشر الجامعي، تونس ٢٠١٧م، ص ١١ و ١٢.

(2) *Embodied Mind, Meaning, and Reason*, Mark Johnson, p 98, 99.

(3) Look: *Embodiment in Cognition and Culture*, John Michael Krois, John Benjamins Publishing, Amsterdam- Philadelphia. 2007, p xi.

(٤) الفلسفة في الجسد، جورج لاكوف ومارك جونسون، ترجمة: عبدالمجيد جحفة، ص ii من مقدمة مارك جونسون للترجمة العربية.

ولهذا يتبنّى عدد من كتب الدراسات المعاصرة هذا التصوّر في منظورها للمعنى، فعلى سبيل المثال «تتبنى النظرية البلاغية المعاصرة منظوراً تجريبياً للمعنى»[1]. أي أن الطريقة التي يتشكّل بها المعنى في البلاغة «تشدّد على العلاقة بين الفهم البلاغي للمعنى والطريقة التي يجرّب فيها الناس الاتصال»[2]. وفي هذا يؤكد عدد من كتب البلاغة المعاصرة أن المعاني التي تصنعها ملفوظاتنا تبدو مرتبطة بشكل حتمي بتجاربنا مع المحيط الخارجي فيزيائياً وثقافياً[3]، وأن الطرق التي نفهم بها العالم مربوطة بتفاعلنا مع محيطنا الفيزيائي[4].

إن هذا يشير إلى أن الدراسات المعاصرة تذهب إلى أن المعنى يُفهم بوصفه تجربة فيزيائية جسدية متعالقة عاطفياً وقيمياً واجتماعياً، «هذه الوحدة تعطي كتلة من المعنى لا تتضمن مرجع الرمز فقط، ولكن تتضمن أيضاً قالباً للتجربة الكاملة التي كان الملفوظ جزءاً منها»[5]. وفي استخداماتنا اللغوية المستقبلية للّغة يتم استدعاء تعالقات هذه التجربة[6].

إن هذا يشير إلى أن المعاني والمفاهيم الإنسانية إنما تتشكّل من خلال موضعة الجسد الإنساني، أي من خلال (التجارب) التي عاشها جسد المستقبل وعايشها مع هذه الرموز. ويمكن إيضاح ذلك من خلال استعمال كلمة (كلب) على سبيل المثال، حيث سيختلف معناه من شخص يستعمله للحراسة عن شخص عضّه كلب مثلاً، حيث سيبعث هذا الرمز (كلب) عند الرجل الأول معاني الأمن والأمان، في حين أنه سيبعث عند الثاني معاني الخوف والرعب.

إن كل ما يتلقّاه الإنسان ويدركه إنما يتم عبر حواسه الخمس، فكل فهم أو إدراك إنساني مبني على الجسد وتفاعلاته مع الوسط المحيط، فلا يمكن للإنسان أن

(1) *Introduction to Rhetorical Theory*, Gerard Hauser, p 224.
(2) *Introduction to Rhetorical Theory*, Gerard Hauser, p 230.
(3) Look: *Introduction to Rhetorical Theory*, Gerard Hauser, p 226.
(4) Look: *Introduction to Rhetorical Theory*, Gerard Hauser, p 226.
(5) *Introduction to Rhetorical Theory*, Gerard Hauser, p 227.
(6) Look: *Introduction to Rhetorical Theory*, Gerard Hauser, p 227.

يدرك شيئاً مما حوله إلا عبر الجسد، فهو يحتاج إلى تفاعل جسده مع ما حوله لتحقيق الإدراك، حيث يحتاج ليدرك الأشياء إلى السمع أو البصر أو اللمس، وإلى الجهاز العصبي والدماغ... إلخ، فالجسد هو الذي يستقبل المدخلات التي تصنع الفهم والإدراك الإنساني. إن هذا يعني أن «خصائص أجسادنا، وتركيبنا العصبي، وبيئاتنا لا تقيد فقط ما يمكن أن نفكر فيه، ولكن الأهم من ذلك، (كيف) نفكر فيه»[1].

جذور فكرة الجسدنة :

يمكن القول: إن كتاب (معنى المعنى) لريتشارد وأوجدن يعدّ واحداً من الكتب التي ألمحت إلى فكرة (الجسدنة) في العصر الحديث دون أن يصرّحا بذلك، وذلك عندما عرض المؤلفان الرؤى والنظريات السابقة للمعنى وناقشاها وقدما نظريتهما الخاصة التي تتبنى ارتباط المعنى بتجارب الناس الجسدية وخبراتهم مع الرمز اللغوي المستخدم.

إنهما يذهبان إلى أن الآثار التي تحدثها العلامة «إنما تعتمد على السجلّ الماضي لذلك الكائن على نحو عام... ولا ريب أن السجل الماضي كله بمعنى من المعاني وثيق الصلة، لكن من بين أحداث الماضي في ذلك السجلّ ما يحدّد طبيعة الإثارة الحاضرة على نحو أكثر مباشرة مما يحدّده غيره، فإذا ما أشعلنا عود ثقاب على سبيل المثال، فإن الحركات التي نقوم بها وصوت الكشط هي مثيرات حاضرة. لكن الإثارة الحاصلة مختلفة عن تلك التي كانت ستحصل في حال أنّا لم نشعل عود ثقاب من قبل. لقد خلّفت الإشعالات الماضية في منظومتنا إنغرامات engrams أي آثاراً باقية تعين على تحديد ما ستكون عليه العملية الذهنية»[2].

(1) *Embodied Mind, Meaning, and Reason, Mark Johnson*, p 100.

(٢) () معنى المعنى، ريتشاردز وأوجدن، ص ١٣٣، ١٣٤.

إن هـذا يعنـي أن المعنـى إنـما يتشـكل مـن خـلال الإدراك الإنسـاني الجسـدي، حيـث إن الكائـن البـشري يسـتجيب للبيانـات الحسـية القادمـة مـن البيئـة المحيطـة، وكل مثـير يسـتقبله عـبر الحـواس يـترك لديـه بصمـة أو أثـراً في الدمـاغ -يُسـمّى (إنغـرام (engram- وهـذا الأثـر قابـلٌ لإعـادة اسـتحضاره واسـترجاعه لاحقـاً عنـد اسـتخدام الرمـز اللغـوي مـرة أخـرى[1].

ويمكـن تبسـيط الفكـرة بالقـول: إن تجاربنـا الماضيـة التـي عايشـنا فيهـا الرمـز وجرّبنـاه تحـدّد العمليـات الذهنيـة التـي تحـدث في عقولنـا عنـد رؤيـة الرمـز أو التعامل معـه مـرة أخـرى، ويمكـن إيضـاح ذلـك بالمثـال الآتي: «إذا أكلنـا طعامـاً ولم يعجبنـا مذاقـه فـإن مجـرد رؤيـة ذلـك الطعـام في المسـتقبل أو رؤيـة رمـز ذلـك الطعـام سـوف يسـبب لنـا ردّ فعـل سـلبياً تجـاه الـشيء أو رمـزه اللغـوي. وأفكارنـا في المسـتقبل عـن الـشيء أو الرمـز سـتتأثّر بتجربتنـا السـابقة معـه. ولهـذا فـإن تفسـيرنا للرمـز أو الـشيء قـد تشـكّل بواسـطة ذلـك السـياق الـذي جرّبنـا فيـه الـشيء مـن قبـل»[2].

وهـذه الطريقـة أو الحالـة التـي يتحقـق فيهـا المعنـى اللغـوي للكلـمات في الذهـن البـشري، تربطنـا بشـكل أسـاسي بالسـياق السـالف الـذي تعاملنـا فيـه مـع ذلـك الرمـز اللغـوي، حيـث تصبـح «هـذه الحالـة البسـيطة نمطيـة في كل تأويـل، ذلـك بـأن خصوصيـة التأويـل تكمـن في أنـه إذا مـا أثّـر فينـا في المـاضي سـياق مـا فـإن تكـرّر جـزء مـن ذلـك السـياق فحسـب سـيولّد لدينـا رد فعـل مماثـلاً لـرد فعلنـا السـابق، فالعلامـة هـي عـلى الـدوام مثـير مشـابه لجزء مـا مـن مثـير أصـلي، وهـو كافٍ لاسـتدعاء الإنغرام الـذي كوّنـه ذلـك المؤثـر»[3].

إن التعامـل مـع الرمـز اللغـوي يتحقّـق عـبر عمليـة اسـتعادة واسـترجاع (حزمـة دلاليـة) خلقهـا الرمـز في أذهاننـا خـلال سـياقات تعاملنـا الماضيـة، وهـذا الاسـترجاع

(1) Look: *Contemporary Perspectives on Rhetoric*, Sonja Foss and others, p 24.

(2) *Rhetorical Theory: An Introduction*. By Timothy Borchers, Heather Hundley. p 119.

(٣) معنى المعنى، ريتشاردز وأوجدن، ص ١٣٥.

لتجربتنا الحسية الفيزيائية مع هذا الرمز اللغوي يحدث بشكلٍ آلي في كل العمليات العقلية تقريباً، «فلننظر في أبسط العمليات التي تقوم بها عقولنا، هل تستجيب إلى حافز ما بطريقة لا تتأثر بالأشياء التي حدثت في الماضي عندما كنا قد فوجئنا بحوافز مماثلة إلى حدّ ما؟ ... إن استجاباتنا تكتسب طابعها الخاص بتأثير أحداث سابقة مماثلة إلى حد ما، وبقدر ما يتعلق الأمر بهذا، فهذا هو المعنى... إن معانينا تعود إلى الماضي البعيد، وإن بعضها يولد من بعض كما يحصل للكائنات الحية. إنها مترابطة على نحو لا يمكن أن ينفصم»[1].

إن المعاني والأفكار والمفاهيم وفق هذا الطرح إنما تصنعها التجارب والمواقف الإنسانية المختلفة التي تمرّ بها أجسادنا، ومن ثم فإن أي عملية تفسير أو تأويل للّغة ستعتمد بشكل كبيرٍ على سياقات استقبالنا السالفة للكلمة، حيث إن «تكرّر جزءٍ من ذلك السياق ... سيولّد لدينا ردّ فعلٍ مماثلاً لردّ فعلنا السابق»[2]. إن هذا يعني أن السياق الذي تعاملنا فيه وجرّبنا هذه العلامة اللغوية يبدو حاضراً عند تفسير هذه العلامة في المرات التالية. وهذا هو ما يؤدي في بعض الأحيان إلى اختلاف المعنى من شخص إلى آخر، وذلك بسبب اختلاف السياقات والتجارب التي عايش فيها الناس هذه العلامات اللغوية، سواء على مستوى الأفراد أو الأمم والثقافات.

هذه الفكرة التي ربط فيها ريتشارد وأوجدن بين المفاهيم الذهنية وتجارب الناس الجسدية يبدو أنها كانت واحدة من الأفكار التي أوحت إلى عدد من الباحثين في اللسانيات الإدراكية بربط تشكيلات اللغة الذهنية بتجارب الإنسان الجسدية، وسوف أسلط الضوء في السطور القادمة على مجالين يكشفان عن ذلك، هما: مجال الاستعارة، ومجال ثنائية الشكل والخلفية.

(١) فلسفة البلاغة، ريتشاردز، ص ٣٧، ٣٨.

(٢) معنى المعنى، ريتشاردز وأوجدن، ص ١٣٥.

ثانياً: الجسدنة والاستعارة :

تُبنى الاستعارة في اللسانيات الإدراكية بشكل واضح على فكرة الجسدنة، فنحن نستعير من تجارب جسدنا السابقة ما نستعين به على فهم الواقع الجديد، ولهذا تُعرَّف الاستعارة في اللسانيات الإدراكية بأنها «فهم مجال تصوري واحد في ضوء مجال تصوري آخر»(١). وهذا يعني أن جوهر الاستعارة يكمن «في كونها تتيح فهم شيء ما وتجربته أو معاناته انطلاقاً من شيء آخر»(٢). إنها «عملية ذهنية تقوم على التقريب بين موضوعين أو وضعين، وذلك بالنظر إلى أحدهما من خلال الآخر»(٣). وتسمّي اللسانيات الإدراكية المجالَ الأول الذي يُستعارُ منه باسم: المصدر Source، في حين يسمّى المجال الذي يُستعار له باسم: الهدف Target. وغالباً ما يكون المصدر مرتبطاً بتجارب الناس الجسدية والفيزيائية.

ويمثّل أحد الباحثين لذلك بقوله: (كان ستالين على قمة الاتحاد السوفييتي وكان الفلاحون في القاع)(٤). فهذه العبارة تشير إلى أن (القوة أعلى)، حيث تُفهم الصلات الاجتماعية في ضوء الأبعاد الاتجاهية. وهذا يعني أن التفكير بالاتجاه حاضرٌ عند التفكير بالعلاقات الاجتماعية، من خلال ربط الموقع الاجتماعي الأقوى بدرجة القمة في خط عمودي متخيَّل.

فقد استعير (القمة) و(القاع) من تجارب الإنسان الجسدية للموقع الاجتماعي الأقوى والأضعف. فنحن -حسب التعريف السابق- نفهم (الموقع الاجتماعي الأقوى) في ضوء (القمة)، و(الموقع الأضعف) في ضوء (القاع). وعلى هذا فالمصدر هو (القمة - والقاع) لأنهما هما اللذان أُخِذا من مجالهما الحسي ليدلّا على الاستعارة، والهدف هو (الموقع الاجتماعي الأقوى والأضعف)؛ لأنه هو المستهدَف بالمعنى الجديد الذي تدلّ عليه الاستعارة. ويكون المصدر عادة

(1) *Metaphor: A Practical Introduction*. Zoltan Covceses. p: 4.

(٢) الاستعارات التي نحيا بها، جورج لاكوف ومارك جونسون، ت: عبدالمجيد جحفة، ص ٢٣.

(٣) بنيات المشابهة في اللغة العربية، مقاربة معرفية، عبدالإله سليم، ص ٩٠.

(4) Look: *Cognitive Poetics in Practice*. Joanna Gavins and Gerard Steen. p: 100.

شيئاً تجريبياً (كالقوة التي نحسّها ونجرّبها في حياتنا دوماً)، في حين أن الهدف يكون في الغالب شيئاً مجرّداً (كالموقع الاجتماعي في المثال السابق).

إن اللسانيات الإدراكية تؤكد على أن الفهم الإنساني ذو نزعة تجريبية، فالإنسان يفهم الأشياء من خلال التجارب التي عايشها. حيث إن لدى الكائن البشري ميلاً «إلى احتواء العالم المحيط به، وذلك بواسطة تمثله، وتخزينه في ذاكرته على شكل معلومات يعود إليها عند الحاجة، ولا يكتفي الكائن البشري بالميل إلى احتواء العالم باعتباره موضوعات، بل يتعدّى ذلك إلى تخزين الأحداث والانفعالات والموضوعات المجردة»[1]، سواء أكان مصدر هذا التخزين هو الوسط الطبيعي المحيط، أو التراث والثقافة المشتركة.

وهذا يعني أن الإنسان يستقي تصوراته المباشرة والاستعارية من الوسط المادّي المحيط، حيث «إن نسقنا التصوّري أساسه تجاربُنا في العالم، فكل التصورات المنبثقة بشكل مباشر (مثل: فوق- تحت- والشيء- والمعالجة المباشرة) والاستعارات (مثل: السعادة فوق، والجدال حرب) لها أسسها في تفاعلنا المستمر مع محيطنا الفيزيائي والثقافي، وكذلك بالنسبة للأبعاد التي تبنين تجربتنا...، إذ تنبثق بشكل طبيعي من نشاطنا في العالم، وهذا النوع من النسق التصوّري الذي نملكه ناتج عن نوعنا باعتبارنا كائنات، وعن الكيفية التي نتفاعل بها مع محيطنا الفيزيائي والثقافي»[2].

وهذا يعني أن الأمور المادية والمعنوية في حياتنا يتم فهمها فهماً تجريبياً مادّياً. ففهم الماديات فهماً تجريبياً مادياً هو فهم مباشر (غير استعاري)، وأما المعنويات فيتم فهمها من خلال الاستعانة بتجارب أجسادنا المادية التجريبية، أي أننا نفهمها استعارياً. وهذا يعني أن الإنسان يستقي من تجاربه الخاصة ليفهم بها الواقع من حوله، فكثير من الموضوعات المجرّدة يفهمها الإنسان فهماً استعارياً من خلال

(١) بنيات المشابهة في اللغة العربية، عبدالإله سليم، ص ٥.

(٢) الاستعارات التي نحيا بها، جورج لاكوف ومارك جونسون، ص ١٢٩، ١٣٠.

حملها على التجارب المادّية المخزّنة في عقله. ولهذا يلحظ أحد الباحثين حضور الاستعارة بقوة عند الحديث عن التجارب المعنوية[1]، ذلك أن الإنسان يلجأ إلى الاستعارة أكثر عندما يتحدّث عن أمرٍ معنوي؛ لأنه سيلجأ إلى استعارة بعض التجارب الحسية من حياته ليعبّر بها عن هذا الأمر المعنوي.

ويمكن أن يُذكر مثال لتوضيح الفرق بينهما. لننظر إلى بعض الكلمات التي تدور في حديث الناس اليومي عند وصفهم: (الجدال) مثلاً، لنرى كيف تحضر الاستعارة فيها بشكل واضح، وكيف تمثّل هذه الأمثلة شواهد على ارتباط الاستعارة بالفكر وليس باللغة وحدها، فالناس مثلاً قد يقولون عند وصف جدال معين[2]:

- لقد دافع عن وجهة نظره.
- إنه يهاجم رأي الطرف الآخر.
- أصابت فكرته الهدف.
- انتصر في ذاك الجدال.
- إنه يتخذ إستراتيجية ممتازة.

إن العبارات التي تحتها خط هي ألفاظ مستعارة من سياقها الأصلي المادي (الحرب) ومستعملة في سياق (الجدال)، فهي إذن (تعبيرات استعارية)، وهي تظهر في حديث الناس اليومي باستمرار دون أن ننتبه إلى استعاريتها. لكنها أيضاً تنبثق من (مفهوم استعاري) ذهني واحد، فهي جميعاً مأخوذة من المفهوم الاستعاري: (الجدال حرب). وهذا يعني أن الإنسان العادي يفهم الجدال من خلال الحرب. فهو يستعير ما يخص الحرب ليفهم به

(1) *Cognitive Poetics in Practice*. Joanna Gavins and Gerard Steen, p: 109.

(٢) هذا المثال مأخوذ من: الاستعارات التي نحيا بها، جورج لاكوف ومارك جونسون، ص٢٢، ٢٣.

الجـدال. وهـذا المفهـوم الاسـتعاري القابـع في ذهـن الإنسـان هـو الـذي أفـرز تلـك التعبـيرات الاسـتعارية، كـما يوضّحـه الشـكل التـالي:

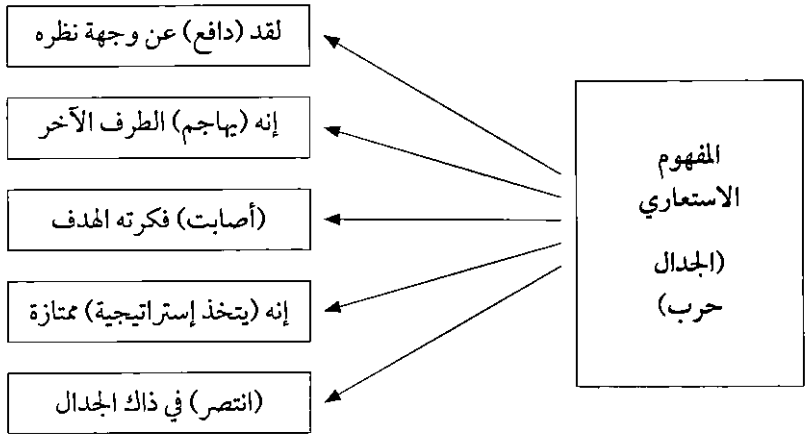

ويمكـن التوضيـح بمثـالٍ آخـر يتحـدث فيـه النـاس عـن الحيـاة، فهـم يقولـون مثـلاً في أحاديثهـم اليوميـة عـن الحيـاة:

- بدأ حياته بشكل جيد.
- نحن ننتقل إلى مرحلة جيدة.
- إنه يسير حياته دون وجهة.
- وصلت في حياتي إلى حيث أردت أن أكون.
- لن أسمح لأحد أن يقف في طريقي.

إن «هـذه الطريقـة في الحديـث عـن الحيـاة تُعَـدّ عنـد كثيريـن حديثـاً طبيعيـاً معتاداً في شـؤون حياتنـا اليوميـة...ولا تعـدّ تعبـيراً بديعـاً أو لغـة أدبيـة. وسـنرى مِـنْ تأمُّـل هـذه الأمثلـة المعطـاة أن كثـيراً مـما نتحـدث بـه عـن «الحيـاة» مأخـوذ مـن الطريقـة التـي نتحـدث بهـا عـن (الرحلـة)»[1]. وهـذا يعنـي أن ثمـة تصـوراً اسـتعارياً يحكـم أفكارنـا عـن (الحيـاة)، فنحـن نسـتبطن في عقولنـا المفهـوم الاسـتعاري التـالي: (الحيـاة رحلـة)،

(1) Metaphor: A practical Introduction. Zoltan Covceses. P: 3.

وهـذا المفهـوم الاسـتعاري هـو الـذي يولّـد في أحاديثنـا الكثـير مـن أمثـال التعابـير الاسـتعارية السـابقة.

إن الإنسـان يحمـل في ذهنـه مخزونـاً مـن المفاهيـم الاسـتعارية التـي تشـكّلت مـن خـلال التجـارب التـي مـرّت بهـا حيـاة الإنسـان، أو التـي شـكّلتها الثقافـة والـتراث الـذي يعيـش فيـه. ومـن خـلال ذلـك يفهـم الإنسـان بعضـاً ممـا حولـه فهـماً اسـتعارياً. إنـه حسـب هـذه الرؤيـة يعايـن كثـيراً مـن الأشـياء التـي يحياهـا في ضـوء أشـياء أخـرى عايشـها جسـدياً سـواء بوعـي أو بـدون وعـي، وتشـكّل هـذه المفاهيـم والتصـورات الاسـتعارية كثـيراً مـن مواقفـه الحياتيـة وعباراتـه اليوميـة.

أن تجربـة الجسـد الإنسـاني -كـما سـبق القـول- سـواء في شـكلها المـادي المشـترك بـين جميـع النـاس، أو في شـكلها الثقـافي الخـاص تعـد مـن المصـادر المهمـة في بنـاء المعرفـة والإدراك الإنسـاني. إن تلـك التجـارب الإنسـانية المشـتركة مثـل الحركـة والطعـام والنـوم... إلـخ وكذلـك تلـك التجـارب الحياتيـة المختلفـة بـين ثقافـة وثقافـة سـتظهر متجسـدة في اللغـة -أي لغـة- بشـكل قـد يعكـس هـذا الوعـي الإنسـاني المشـترك، أو قـد يعكـس حالـة التنـوع والاختـلاف الثقـافي. ولهـذا تتحـدث اللسـانيات الإدراكيـة عـن (المشـتركات الإدراكيـة cognitive universals)، وهـي تلـك المبـادئ والمفاهيـم المشـتركة التـي تعكسـها اللغـة عنـد النـاس كلهـم عـلى اختـلاف أجناسـهم، وعـن (الاختلافـات الإدراكيـة variations cognitive) وهـي تلـك المفاهيـم الثقافيـة التـي تختلـف مـن لغـة إلى أخـرى[1].

إن واحـدة مـن الاسـتعارات الإنسـانية المشـتركة هـي تلـك الاسـتعارة التـي يتـم في ضوئهـا فهـم (الدولـة أو الأمـة في ضـوء مفهـوم العائلـة)، فهـي تعـد اسـتعارة مفهوميـة شـهيرة توجـد في جميـع اللغـات الإنسـانية تقريبـاً. هـذه الاسـتعارة يشـير باحثـون إلى وجودهـا في مختلـف الأمـم، فهـي موجـودة في

(1) Look: *Cognitive Linguistics, an Introduction*, Vyvyan Evans and Melanie Green, p 54.

الخطاب السياسي الهندي والروسي والأمريكي[1]، ويشير باحث عربي إلى استخدامها في الخطاب السياسي العربي[2].

ويعزو لاكوف سبب شيوع هذه الاستعارة المفهومية بين لغات وثقافات مختلفة إلى تجربة الجسد الإنساني المشتركة في العائلة، حيث إن «تجربتنا الأولى في كوننا «محكومين» تحدث في العائلة، حيث «يحكمنا» الوالدان، فهم يحموننا، ويخبروننا بما يمكن أن نفعل وما لا يمكن، ويتأكدون من توفر المال والتموين الكافي لدينا، ويربوننا ويعلموننا»[3]. إن هذه التجربة الإنسانية المادية المشتركة هي مصدر هذا المفهوم الاستعاري المشترك بين اللغات والثقافات الإنسانية.

إن هذا يدل على أن تجارب الجسد الإنساني تسهم بشكل كبير في تشكيل مفاهيمنا وأفكارنا، ولو نظرنا إلى الفلسفة على سبيل المثال فسنجد أن «الكثير من التصوّرات التي تناولتها الفلسفة وحلّلتها ووطّدت مفاهيمها تصوّرات مبنية انطلاقاً من استعارات ومن بعض النظريات العامية الحاضرة عند جميع البشر والتي تتناغم مع هذه الاستعارات... أغلب المفاهيم الفلسفية مفاهيم استعارية، ولا يشكّل فيها المعنى الحرفي سوى الهيكل، أما لحمها فكله استعاري»[4].

إن هذا يعني بأن ما ندركه في العالَم ليس معطىً موضوعياً، ولكن الذي نعيه في الواقع إنما يتشكل عبر إدراكنا الجسدي، حيث تبدو تمثيلات ذلك لغوياً مقيدة بهذه العمليات الإدراكية الأساسية التي تتم من خلالها المعالجة الذهنية والعقلية.

(1) *Thinking Points: Communicating Our American Values and Vision*, George Lakoff, Farrar, p 49.

(٢) ينظر: الفصل الرابع من كتاب: إستراتيجيات الخطاب والإقناع (خطب الرئيس السادات نموذجاً)، د.عماد عبداللطيف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢م.

(3) Thinking Points, George Lakoff, p 49.

(٤) الفلسفة في الجسد، جورج لاكوف ومارك جونسون، ترجمة: عبدالمجيد جحفة، ص ٧ ، ٨ من مقدمة المترجم.

ثالثاً: الجسدنة وثنائية الشكل والخلفية

سأحاول هنا تسليط الضوء على كيفية تجلّي ثنائية الشكل والخلفية بوصفها مدركاً جسدياً في تشكيلات اللغة الإنسانية، وسأحاول في البداية عرض مفهوم الشكل والخلفية، ثم أعقّب ذلك بالكشف عن تغلغله في تعبيرات الإنسان اللغوية.

- مفهوم الشكل والخلفية

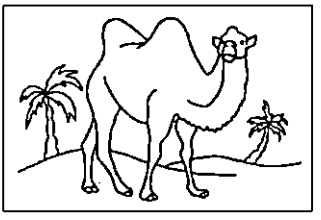

صورة ١

لو طُلب من مجموعة من الناس ذِكْر ما يرونه في الصورة (١) أعلاه، وتحديد مضمون الصورة بكلمة واحدة؟ فسيقول الجميع: إنه (الجمل). هذا على الرغم من أن في الصورة عناصر أخرى غير الجمل، مثل النخل، والرمل، والسماء. إن السبب في التركيز على (الجمل) وعدم الاهتمام بالأشياء خلفه يأتي لأن الإدراك البصري الإنساني يلتقط الصور على أساس أنها مكونة من شيئين: (الشكل) figure و(الخلفية) ground.

ويمكن إيضاح الفكرة أكثر بالنظر إلى الشكلين الآتيين (صورة ٢، صورة ٣):

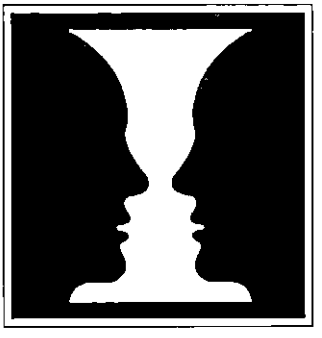

صورة ٢

صورة ٣

إن الصورتين ٢ و ٣ تحتمل فيهما كل صورة احتمالين، حيث يمكن أن ننظر إلى الصورة ٢ إما على أنها صورة لمزهرية، أو لوجهي إنسانين متقابلين. وقد ننظر إلى الصورة ٣ إما على أنها صورة لشجرة، أو لوجهي حيوانين متقابلين. ويتم ذلك من خلال إدراك الصورتين على أنهما مكوّنتان من وحدات في الأمام وعناصر في الخلف، وهذا يعني أن إدراكنا البشري يدرك الأشياء من خلال ثنائية (الشكل والخلفية)، وذلك بتمييز ما نستحضره وهو (الشكل)، عما وراءه، وهو (الخلفية)، بحيث يكون التركيز والاهتمام نحو الشكل لا الخلفية.

إننا بدون هذا التمييز بين الشكل والخلفية لن نستطيع أن ندرك الصورة جيداً؛ لأننا «عندما لا نملك القدرة على إنشاء التفريق بين الشكل والخلفية، فإننا سنكون قادرين فقط على إدراك مجال مسطّح من الأشكال والألوان المتداخلة »[1].

وتقوم على هذا المبدأ دراسات علم النفس الجشطالتي Gestalt Psychology، فكل ما ندركه بأبصارنا فإننا ندركه في ضوء هذا المبدأ، فأنت على سبيل المثال عندما «تنظر إلى الأعلى وترى طيراً يحلق وحيداً في السماء، هذا الطائر هو (الشكل)... والسماء هي (الخلفية)... وهذا هو (إدراك الشكل والخلفية figure-ground perception)»[2]. ويمكن القول: «إن هذا النوع من الإدراك والقدرة على تمييز الشكل من المجال (الخلفية) هو نزعة تنظيم فطرية. إننا لا نتعلّم فعل ذلك، وإنما نفعل ذلك على الأرجح بشكل عفوي في الطفولة المبكرة»[3].

على أنه «يجب أن نضع في أذهاننا أن هذا الإدراك ليس بالضرورة انعكاساً لبنية الواقع الخارجي نفسها... وإنما هو بناء ذهني ليس بالضرورة يعكس حقيقة العالم الفيزيائي»[4]. وقد اهتم علم النفس الجشطالتي بوضع القوانين المختلفة Gestalt laws التي تحكم إدراكنا للشكل والخلفية[5].

(1) *Cognitive Poetics An introduction*, Peter Stockwell, , p 15.
(2) *Psychology: A Self-Teaching Guide*, Frank J. Bruno, John Wiley, p 59.
(3) *Psychology: A Self-Teaching Guide*, By Frank J. Bruno, p 59.
(4) *Psychology: A Self-Teaching Guide*, By Frank J. Bruno, p 59.
(5) Look: *Psychology: A Self-Teaching Guide*, By Frank J. Bruno, p 60.

إن هـذا يؤكـد أن «الوعـي الإنسـاني يقـوم في أي مشـهد معطـى بالفصـل آليـاً بـين الشـكل والخلفيـة، حيـث (الشـكل) هـو الكيـان الـذي ينـال مظهـراً مهيمنـاً بـين الأشـياء الأخـرى... وتـأتي (الخلفيـة) في مقابـل (الشـكل)، وهـي ذلـك الجـزء مـن المشـهد القابـع في الخلـف»[1]. ولا يخـص هـذا الأمـر الإدراك البـصري فحسـب، بـل يظهـر في غـيره مـن المـدركات. إنـه لمـن الممكـن القـول: إن «مـن القـدرات البشريـة الأساسـية القـدرة عـلى التمييـز بـين الأشـياء المختلفـة في إدراكنـا لهـا، والقـدرة عـلى الانتبـاه لواحـدة منهـا، أو لمجموعـة منفـردة منهـا دون غيرهـا باهتـمام وتركيـز أكـبر مـن اللذيـن نمنحهـا للأشـياء الأخـرى التـي دفعنـا بهـا إلى الخلفيـة. تتضـح هـذه المقـدرة جليـة في المجـال البـصري، ولكنهـا موجـودة كذلـك في قدرتنـا عـلى السـماح للأصـوات والمذاقـات والروائـح والملامـس المختلفـة بالدخـول في حيـز انتباهنـا مـن عدمـه، نسـتطيع أن نرسـم حـدود الأشـياء التـي تفصلهـا عـن خلفيتهـا»[2].

هـذا المبـدأ الإدراكـي الأسـاسي (تمييـز الشـكل مـن الخلفيـة) قـد سُـلّط عليـه الضـوء في عـدد مـن الدراسـات الإدراكيـة، وذلـك بغيـة الكشـف عـن تجلياتـه في اللغـة الإنسـانية. وهـو مـا سـأوضّحه في السـطور الآتيـة.

١- في اللغة والتركيب:

انتقـل هـذا التمييـز بـين الشـكل والخلفيـة مـن علـم النفـس الجشـطالتي إلى اللسـانيات الإدراكيـة عـلى يـد عـدد مـن العلـماء مـن أشـهرهم تالمـي Talmy[3].

لقـد «عُـدّ مبـدأ الشـكل والخلفيـة فكـرة أساسـية شـديدة الأثـر في اللسـانيات الإدراكيـة»[4]، فقـد اعتُمِـد عليـه في تفسـير عمليـات التصنيـف الإنسـاني

(1) *Cognitive Linguistics, an Introduction*, Vyvyan Evans and Melanie Green, p 65.

(٢) (الأسلوبية العرفانية) ترجمة: رضوى قطيط، مجلة فصول ، العدد ١٠٠ المجلد ٢٥/ ٤ ، صيف ٢٠١٧، ص ١٠٩.

(3) Look: *Cognitive Linguistics*, William Croft, D. Alan Cruse, p 56.

(4) *Cognitive Linguistics, an Introduction*, Vyvyan Evans and Melanie Green,, p 13.

Categorization، كما استُخدِم أيضاً لتقديم تصورات تتصل بالنحو الإدراكي Cognitive Grammar. وسأوضح في السطور الآتية كيف يحضر مبدأ تمييز الشكل من الخلفية في مقاربات النحو الإدراكي.

**** ****

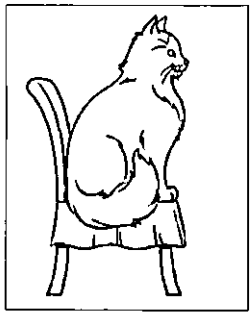

صورة ٤

إن النحو الإدراكي يدرس ارتباط البناء النحوي والتركيبي بالإدراك الإنساني، حيث ينظر إلى تأثير الإدراك الإنساني أو تجلياته في الشكل النحوي. ويذكر أحد الباحثين مثالاً لذلك بأننا لو نظرنا مثلاً إلى الصورة السابقة (صورة ٤) فسنقول: إن (الشكل هو القطة)، وأن (الخلفية هي الكرسي).

ولو طلبنا من مجموعة من الناس وصف هذه الصورة لغوياً بجملة واحدة، فإن معظم المتحدثين سوف يذهبون إلى القول: إن الجملة التي تعبّر عن ذلك، هي:

- القطة فوق الكرسي - (أو) القطة تجلس على الكرسي.

ولكن يبدو من النادر أن يقول أحد الجملة الآتية:

- الكرسي تحت القطة.

والسبب في ذلك يعود إلى أن علم النفس يكشف عن وجود نزعة لدى العقل الإنساني نحو التركيز على عناصر محددة في المشهد البصري، فمثلاً في

الصورة السابقة اتجه تركيزنا إلى القطة وليس إلى الكرسي؛ لأن إدراكنا تعلّم كون القطة أكثر قابلية للحركة أو الصوت أو الفعل، ولذلك أدركناها على أنها هي (الشكل)، والكرسي هو (الخلفية)، وهو ما أدى إلى صياغة بنائنا التركيبي والنحوي للجملة وفق هذا الإدراك[1].

إن هذا يعني حسب رأي باحثي النحو الإدراكي أن التراكيب والصياغات النحوية منبثقة من الوعي والإدراك الإنساني. وسأحاول هنا تقديم شرح ميسّر عن ذلك من خلال فكرة تمييز الشكل من الخلفية، وذلك عبر النقاط الآتية:

أولاً: التركيز والاهتمام:

لقد اتضح من الحديث السابق أن الإدراك الإنساني يتوجّه بالتركيز والاهتمام نحو الشكل وليس الخلفية. وهذا الإدراك ينعكس في التركيب النحوي كما سبق القول، إذ «يأتي الاهتمام والتركيز مهماً للنظام النحوي»[2].

وتشير دراسات النحو الإدراكي إلى أن بؤرة الاهتمام قد تتحدد نحوياً عبر طريقين، هما: (تنظيم وترتيب الجملة)، و(اختيار الفعل)[3]. ويمكن الشرح والتمثيل لتنظيم الجملة وترتيبها بما يكشفه كلام الإمام عبدالقاهر الجرجاني عن ارتباط التركيب النحوي بالتركيز والاهتمام. يقول الإمام عبدالقاهر:

«قال النحويون: ... قد يكون من أغراض الناس في فعل ما أن يقع بإنسان بعينه، ولا يبالون من أوقعه كمثل ما يعلم من حالهم في حال الخارجي يخرج فيعيث ويفسد ويكثر به الأذى، أنهم يريدون قتله ولا يبالون من كان القتل منه، ولا يعنيهم منه شيء، فإذا قتل وأراد مريدٌ الإخبارَ بذلك فإنه يقدّم ذكر الخارجي فيقول: قتل الخارجي زيدٌ. ولا يقول: قتل زيدٌ الخارجيَّ. لأنه يعلم أن

(1) Look: *Cognitive Linguistics, an Introduction*, Vyvyan Evans and Melanie Green,, p 17-18.
(2) *Cognitive Linguistics, an Introduction*, Vyvyan Evans and Melanie Green,, p 526.
(3) Look: *Cognitive Linguistics, an Introduction*, Vyvyan Evans and Melanie Green,, p 526.

ليس للناس في أن يعلموا أن القاتل له زيد جدوى وفائدة. فيعنيهم ذكره ويهمّهم ويتصل بمسرتهم ويعلم من حالهم أن الذي هم متوقعون له ومتطلعون إليه متى يكون وقوع القتل بالخارجي المفسد، وأنهم قد كفوا شره وتخلصوا منه. ثم قالوا: فإن كان رجلٌ ليس له بأسٌ ولا يُقَدَّرُ فيه أنه يَقتُلُ، فقَتلَ رجلاً، وأراد المخبر أن يخبر بذلك، فإن يُقدِّم ذكرَ القاتلِ فيقول: «قتلَ زيدٌ رجلاً»؛ ذاك لأَنَّ الذي يَعْنيه ويَعْني الناسَ مِن شأنِ هذا القتلِ، طرافَتُه وموضعُ النُدْرة فيه، وبُعدُه كان منَ الظنِّ. ومعلومٌ أَنه لم يكنْ نادراً وبعيداً من حيثُ كان واقعاً بالذي وَقَع به، ولكنْ من حيثُ كان واقعاً مِنَ الذي وقعَ منه»[1].

إن هذا يعني أن تنظيم الجملة من الداخل وترتيب عناصرها قد انطلق من (تمييز الشكل من الخلفية)، وذلك أنه يوجّه التركيز والاهتمام نحو عناصر محددة، ويزيح عناصر أخرى من دائرة الاهتمام، مما يجعل مناط الاهتمام هو الشكل، وما عداه هو الخلفية.

كما يتحقّق التركيز والاهتمام عبر (اختيار الفعل) أيضاً، ويمكن التمثيل لذلك بالمثالين الآتيين:

- باع العاملُ الخبز إلى زيد.
- اشترى زيدٌ الخبز من العامل.

إن الفعلين (اشترى) و(باع) يطرح كل واحد منهما الاهتمام بفاعل مختلف، حيث يوجّه الفعل (باع) الاهتمام إلى (البائع/ العامل) في المثال الأول، في حين أن الفعل (اشترى) يوجّه الاهتمام إلى (المشتري/ زيد) في المثال الثاني، وعلى هذا يحدّد اختيار الفعل مناط التركيز والاهتمام، وموقع (الشكل) من (الخلفية) في الجملة.

إن هذا يعني بأن التركيب النحوي عبر اعتماده على تنظيم محدد أو اختيار عناصري محدد إنما يُوجِّه الاهتمام نحو عنصر ما بشكل يفوق بقية

(١) دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر ص ١٠٨.

العناصر اللغوية الأخرى. وهذا العنصر الذي يضعه التركيب النحوي موضع الاهتمام والتركيز يأتي ليكون هو الشكل، في حين أن بقية العناصر الأخرى تبدو بمثابة الخلفية.

ثانياً: علاقة الشكل بالخلفية:

إن جميع التعبيرات الفضائية في اللغة العادية يُعبّر عنها بتخصيص موضع شيء (الشكل) ليرتبط بشيء آخر (الخلفية) كما في الأمثلة الآتية:

- الكتاب على الأرض (الكتاب شكل، الأرض خلفية).
- ذهبت هند إلى المنزل (هند شكل، المنزل خلفية).

ويقرّر باحثو النحو الإدراكي وجود سمات محددة في (الشكل)، وسمات أخرى تظهر في (الخلفية) غالباً، وهي تحكم علاقات الشكل بالخلفية وارتباطهما ببعض، كما يوضحها هذا الجدول:

الشكل	الخلفية
معرفتنا بمكانه أقل	معرفتنا بمكانه أكثر
أصغر	أكبر
متحرك	ثابت
أيسر تركيباً	معقد التركيب
ظاهر	غير ظاهر

إن هذا يعني أن العلاقات والروابط أعلاه بين الشكل والخلفية هي ما يحكم إدراكنا الذهني، ولذلك نراها تنعكس في التركيب والتنظيم النحوي للغتنا اليومي، فمثلاً نحن نقول:

- السيارة عند الشاطئ (الأصغر هو الشكل، والأكبر هو الخلفية).
- سقطت صخرة على الشجرة (المتحرك هو الشكل والثابت هو الخلفية).

ولكننا عادة لا نقول العكس، فلا نقول: (الشاطئ عند السيارة) أو (الشجرة سقطت عليها صخرة)؛ لأن إدراكنا تبرمج على إدراك الأمور وفقاً لتلك العلاقات المعتادة بين الشكل والخلفية، وهذه الطريقة في التعبير هي التي تعوّدنا عليها، حيث يترك هذا الإدراك الذهني بصماته على التركيب النحوي المعتاد في كلامنا.

على أنه لا بد من التأكيد أن هذه العلاقات والروابط هي الأصل الذي ينبثق منه التركيب النحوي، ولكن قد يُخالف هذا الأصل لدواعٍ بلاغية أو جمالية، وسوف نوضّح ذلك في مبحث لاحق.

ثالثاً: إدراكنا يصنع نماذج تركيبية:

اتضح مما سبق أن العلاقات والروابط بين الشكل والخلفية تُدرك عادة بطريقة معينة. وأن التركيب النحوي يمتثل في كثير من الأحيان لتلك العلاقات والروابط المعتادة. وبهذا يمكن القول: إن التعبيراتِ المكانية والزمانية تُدرَك بوصفها نماذج تركيبية، أو خطاطة تصويرية Image Schema، كما تُسمى في اللسانيات الإدراكية، وهي عبارة عن صور ذهنية تُستخدم بوصفها قوالب أساسية تصنع فهمنا المعتاد لما نمرّ به من مواقف في الحياة[1]. بعبارة أخرى يمكن القول: إن الخطاطة التصويرية هي نمط مكون من الشكل والخلفية والعلاقة التي تربطهما ببعض، وتتشكل هذه الخطاطات التصويرية في عقولنا من خلال الوسط الخارجي الذي نعيشه ونعايشه، فكل ما ندركه وفقاً للسانيات الإدراكية يتشكل من خلال تجاربنا اليومية في الحياة، وهكذا تتشكل الخطاطة

(1) Look: *Cognitive Linguistics*, William Croft, D. Alan Cruse. p 56.

التصويرية في عقول الناس ووعيهم. والخطاطة أو النمط الواحد قد يندرج تحته ملايين الجمل. ولنتأمل الجمل الآتية:

- سافر علي إلى الرياض.
- حلّق العصفور في السماء.
- دخل محمد المدرسة.
- وصلتُ إلى الجامعة.
- غادر القطار.

إن هذه الجمل (وغيرها كثير) تشترك في أنها جميعاً مبنية على خطاطة تصويرية واحدة، وهي:

الشكل + (حركة باتجاه) + الخلفية

وتتشكل في وعي الناس وبفعل التجربة الإنسانية اليومية عدد من الخطاطات التصويرية الأخرى فتصبح معتادة في لغة الاستخدام اليومي، وهي مبنية على العلاقات المعتادة بين الشكل والخلفية.

هذه الخطاطات التصويرية المعتادة يمكن مخالفتها في اللغة الإبداعية، حيث يمكن القول: «إن التفصيلات الإبداعية للخطاطة التصويرية يمكن أن تظهر بوصفها تحويراً صادماً أو مثيراً لأنموذج معتاد، وهذا هو الإدهاش Defamiliarization»[1] وهذا ما سنحاول توضيحه في الفقرة القادمة.

أرجو أن يكون الشرح السابق قد كشف عن تجذّر هذا المبدأ الإدراكي (تمييز الشكل من الخلفية) في صياغاتنا النحوية، سواء من حيث ما يصنعه التركيب النحوي من اهتمام بعناصر محددة عبر الاختيار أو الترتيب، أو عبر النماذج التركيبية والخطاطات التصويرية التي انبثقت كما أشرنا من وعي الإنسان وإدراكه الجسدي.

(1) *Cognitive Poetics An introduction*, Peter Stockwell, p 18.

٢-في البلاغة والأدب:

تؤكد دراسات الأدب الإدراكية وجود «اتصال بين العمليات اللغوية في بناء النص الأدبي وتفسيره، والعمليات اللغوية في العقل البشري، وتزودنا الشعريات الإدراكية بإقامة الصلة بين الحقلين المعرفيين»(١).

ولهذا يسعى هذا النوع من الدراسات إلى معرفة « كيف يمكن لحقل الشعريات الإدراكية أن يفيد بوصفه حلقة اتصال بين الدراسات الأدبية واللسانيات، فالشعريات الإدراكية تدرس العمليات المعرفية التي تحدّد ماهية الاستجابة الأدبية والبنية الشعرية... وتسهم الشعريات الإدراكية في الوقت نفسه... في إنتاج تفسير للعقل المجسّد، أو التأثير الذي نطلق عليه ترميزاً إشارياً أيقونياً، كي تجعل الأحاسيس والانفعالات والصور في اللغة متصورة في العقل كحقيقة فائقة»(٢).

إن هذا النوع من دراسات اللغة الأدبية قد أخذ اهتمام عدد من الدارسين المعاصرين عبر مقاربات مختلفة، «تُسمّي أحياناً (الشعرية الإدراكية) بـ(الأسلوبية الإدراكية) أو (البلاغة الإدراكية)»(٣)، وتتفق جميعها في كونها تدرس أدبية اللغة في ضوء اللسانيات الإدراكية مع فروق يسيرة بينها، وذلك بحسب اختلاف نوع المقاربة من أسلوبية أو بلاغية أو شعرية، وقد تضمن عدد مجلة فصول الخاص بـ(الإدراكيات) دراسات من هذا النوع ما بين أسلوبية أو شعرية أو بلاغية.

ولعل أشهر دراستين في هذا كتابان يعدّان من أوائل ما ظهر في الحديث عن الشعرية الإدراكية، هما:

- Cognitive Poetics An introduction, Peter Stockwell 2002.
- Cognitive Poetics in Practice. Joanna Gavins and Gerard Steen 2003.

---

(١) انهيار الحاجز بين الدراسات الأدبية واللسانيات، مدخل إلى الشعريات الإدراكية، مجلة فصول، العدد ١٠٠، الإدراكيات، مارجريت هـ. فريمان، ترجمة: محمد سمير عبدالسلام، ص ١٦٦.

(٢) انهيار الحاجز بين الدراسات الأدبية واللسانيات، مدخل إلى الشعريات الإدراكية، مجلة فصول، العدد ١٠٠، الإدراكيات، مارجريت هـ. فريمان، ترجمة: محمد سمير عبدالسلام، ص ١٦٥.

(3) *Cognitive Poetics An introduction*, Peter Stockwell, p 60.

والكتابان يتكاملان فقد ركز أحدهما على التنظير والآخر على التطبيق. ويحاول الكتابان كلّ على حدة الحديث في فصل خاص عن الشكل والخلفية وتجلياتها في الخطاب الأدبي؛ إذ يؤكد بيتر ستوكول أنه من الممكن «استخدام فكرة الشكل والخلفية بوصفها وسائل لفهم الأفكار الأدبية النقدية العامة، ومن ثم على أنها وسائل لاستكشاف نماذج الوعي الخاصة»[1]. وهو ما يمكن توضيحه من خلال الآتي:

أولاً: في القانون الأدبي العام:

يُقصد هنا الكشف عن خضوع الإدراك الإنساني للأدب إنتاجاً واستقبالاً لقوانين العقل الإنساني دون تحديد ذلك بأديب أو قارئ محدد. ويمكن إيضاح ذلك بالقول: إننا نعتمد في فهم العالم بشكل أساسي على قدرتنا في إدراك الأسلوب والفروقات الأسلوبية بين الأشياء، ولهذا فإن ثنائية الشكل والخلفية تعد من العناصر الأساسية في تحليل الأسلوب الأدبي[2].

«إن أعظم تجاوب واضح في ظاهرة الشكل والخلفية تبدو في الفكرة النقدية الأدبية: (الإبراز foregrounding)، حيث يُنظر إلى عناصر محددة في النصوص الأدبية بوصفها أكثر أهمية وبروزا من غيرها»[3].

وذلك أنه «حسب هذه الرؤية تبدو إحدى الوظائف الرئيسية للأدب هي الإدهاش.. وذلك عبر إثارة استغراب القارئ حول عناصر اعتادها في هذا العالم وتقديمها بطريقة إبداعية جديدة»[4].

(1) *Cognitive Poetics An introduction*, Peter Stockwell, p 14.
(2) Look: *Cognitive Poetics An introduction*, Peter Stockwell, p 15.
(3) *Cognitive Poetics An introduction*, Peter Stockwell, p 14.
(4) *Cognitive Poetics An introduction*, Peter Stockwell, p 14.

ويتحقق «الإبراز داخل النص عبر مجموعة من الأدوات، مثل التكرار والتسمية غير المعتادة والوصف المبتكر والتركيب النحوي الإبداعي، والتورية والإيقاع والجناس والنبر الموزون والاستخدام الإبداعي للاستعارة وهكذا»[1]. وهي جميعاً أشكال تدخل ضمن العدول أو التوازي الذي يُستخدم فيه عنصر لغوي بشكل يخالف الاستعمال المعتاد في اللغة اليومية.

إن هذا يعني أن البلاغة الإدراكية والشعرية الإدراكية والأسلوبية الإدراكية تعمل على دراسة العدول أو التوازي الذي يتحقق في لغة ما عن قواعد الإدراك المعتادة من أجل البحث عن قيمته الجمالية أو البلاغية[2].

إن هذا القانون العام (قانون الإبراز) الذي يحكم الصوغ الأدبي يعدّ امتثالاً لإدراكنا الإنساني من خلال ثنائية (الشكل) و(الخلفية)، حيث يقوم الإبراز الأسلوبي بجعل هذه العناصر اللغوية اللافتة للنظر مُميّزة ومُدرَكة بوصفها (الشكل) الذي ينال التركيز والاهتمام، وتكون بقية العناصر التي جاءت دون تغيير لافت في صوغها اللغوي مُدرَكة بوصفها (الخلفية) التي تراجعت إلى الوراء ليتوجّه تركيزنا واهتمامنا نحو العناصر الأسلوبية البارزة.

ثانياً: في الوعي الخاص:

يُقصد هنا النظر إلى الكيفية التي أثّر فيها الإدراك الإنساني على صوغ كاتب معين لنصه اللغوي، أو الكيفية التي أثّر بها على استقبال هذا النص من قارئ أو جمهور محدد. ويمكن القول: إن الكاتب قد يهيمن على كلامه أشكال تعبيرية خاصة، فقد تظهر لديه سمة أو سمات أسلوبية بشكل لافت. هذه السمة أو السمات المهيمنة يمكن عدّها (الشكل)، في حين يكون بقية النص الأدبي بمثابة (الخلفية)[3].

(1) *Cognitive Poetics An introduction*, Peter Stockwell, p 14.
(2) *Cognitive Poetics in Practice*. Joanna Gavins and Gerard Steen, p 57.
(3) Look: *Cognitive Poetics An introduction*, Peter Stockwell, p 14.

وهـذا يعنـي أن هـذه الفروقـات الأسـلوبية تحقـق الهيمنـة Prominence في الشـكل بـما يميـزه مـن الخلفيـة عنـد الأديـب المـدروس، ذلـك «أن أسـاليب «التـوازي والتكـرار البلاغـي يمكـن أن تُناقـش بوصفهـا وسـائل لغويـة تعكـس ارتبـاط تصـورٍ مهيمـنٍ بعنـصر مـا مـن المشـهد، أو بنمـط محـدد في التصـور، وذلـك عـبر تكـرار جذب انتبـاه المخاطَـب إليهـا»[1].

ولذلـك يحسـن عنـد دراسـة الظواهـر البلاغيـة إدراكيـاً في خطـاب محـدد تفسـيرُ ارتبـاط إنتـاج هـذه الظواهـر البلاغيـة أو اسـتقبالها بـإدراك المنشـئ أو المسـتقبِل في مسـتواه الفـردي أو الاجتماعـي أو الثقـافي أو الكـوني. لقـد سـبق القـول إن ثمـة خطاطـات تصويريـة أو نـماذج تركيبيـة صنعهـا إدراكنـا الحـسي، وأن التركيـب النحـوي المعتـاد يلتـزم بعـدد مـن النـماذج التركيبيـة (الخطاطـات التصويريـة)، حيـث ذكرنـا في الأعـلى أن مـن النـماذج التركيبيـة الشـائعة النمـوذج الآتي:

الشكل + (حركة باتجاه) + الخلفية.

ولذلـك فإننـا لـو أردنـا أن نعـبّر عـن قافلـة تسـير في الـوادي فإننـا نقـول حسـب هـذه القاعـدة:

- سارت القافلة في الوادي. (فهذا تركيب نحوي معتاد).

وليس من المعتاد أن يقول أحد من الناس العكس، فيقول مثلاً:

- سار الوادي في القافلة. (فهذا تركيب غير معتاد).

ولهـذا فـإن التركيـب المعتـاد هـو التركيـب الإدراكـي النحـوي، وهـو الشـائع الـذي يُكثـر النـاس صـوغ كلامهـم عـلى منوالـه، أمـا التركيـب الإدراكـي البلاغـي (أو الأدبي) فهـو التركيـب غـير الشـائع الـذي يخالـف التركيـب الإدراكـي النحـوي، ولـو

(1) *Cognitive Linguistics and Poetics of Translation*, Elżbieta Tabakowska, Cunter Narr Verlag, 1993, p 52.

وقع مثل هذا التركيب البلاغي في كلام كاتب أو أديب فإننا نحتاج إلى تفسيره من خلال الإدراك الخاص بذلك الأديب. ولننظر مثلاً إلى قول الشاعر:

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسّح بالأركان من هو ماسحُ

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطحُ

حيث يُلحظ أن الشاعر لم يلتزم بذلك النموذج التركيبي في قوله: (وسالت بأعناق المطي الأباطحُ)، حيث يقتضي التركيب الأصلي أن يقول العكس: (سالت أعناق المطي بالأباطح). وهذا يعني أن الشاعر قد خالف التركيب المعتاد، حيث جعل (الخلفية) في التركيب الأصلي (وهي الأباطح) تصبح في التركيب الأدبي هي (الشكل)، في حين أنه جعل (الشكل) في التركيب الأصلي، وهي (أعناق المطي) تصبح هي الخلفية في التعبير الأدبي، وهذا يعني أنه قد قلب العلاقة المعتادة بين الشكل والخلفية، إذ الأصل أن تتحرك أعناق المطي في الأباطح، ولكن الشاعر قلب ذلك فجعل الأباطح تتحرك في أعناق المطي. إن هذا يعني بلاغياً أنه قد «يُتلاعَب بعلاقات الشكل والخلفية، حيث يمكن أن يصبح الشيء نفسه هو (الشكل) في سياق، و(الخلفية) في سياق آخر»[1].

ولتفسير ذلك إدراكياً يمكن القول: إن هذا العدول الأسلوبي لا يخلو من غرض بلاغي يكشف عن انشغال الشاعر بفكرة الوصول والعودة، وذلك أنه بعد إتمامه النسك، ومغادرته أرض الحرم، في شوق شديد للعودة نحو الديار، ولذا كان تركيزه ليس على الناس ولا على المطي، وإنما على الطريق، حيث جعل الطريق (الخلفية) هو الذي يتحرّك، فالأباطح هي التي تمضي وتسير. إن اهتمامه في تلك اللحظة منصبّ على الأباطح/ الخلفية التي يسيرون نحوها، فهي طريقهم إلى وصول مرابع الأحبة ومراتعهم. وانشغاله بفكرة الوصول جعله يركز على ما يتجاوزونه من الأباطح والأودية (الخلفية)، حيث جعلها محلّ التركيز وموضع الاهتمام.

(1) *Cognitive Poetics An introduction*, Peter Stockwell, p 16.

لقد انعكس هذا الإدراك في صوغه البلاغي فخالف بسبب ذلك أصل التركيب المعتاد. لقد قام بوصف المشهد من خلال ما تركّز عليه إدراكه البصري لحظة الركوب على ظهر الدابة، حيث إن عينيه في تلك اللحظة كانتا تركّزان على الطريق الذي أمامه، ولذا أدرك (عنق المطية) ثابتاً، و(الأباطح) متحرّكة، فبدَتْ له الصورة تبعاً لذلك أن الثابت هو عنق الناقة، وأن المتحرّك هو الوادي، فلأن هذا هو موضع اهتمام وتركيز عيني الشاعر وعقله في تلك اللحظة فقد جاء صوغه اللغوي منسجماً مع وعيه وإدراكه البصري آنذاك.

• الخلاصة:

يحاول هذا البحث أن يكشف ارتباط الإدراك الإنساني بالجانب الحسي والجسدي عند الإنسان، وهو ما يُعرف باسم (الجسدنة)، حيث «لا يمكننا أن نكوّن التصورات إلا من خلال الجسد، ولذلك فإن كل فهم نحصل عليه للعالم ولأنفسنا وللآخرين لا يؤطّر إلا من خلال تصوّرات تشكّلها وتصوغها أجسادنا»[1].

وقد قام هذا البحث بعرض هذا الموضوع من خلال ثلاثة محاور، تحدّث المحور الأول منها عن علاقة الجسد بالعقل في اللسانيات الإدراكية، مؤكدا أن الجسد يتأثر ويؤثر في تشكيل المدركات في العقل الإنساني. وجاء المحور الثاني ليوضّح كيف تصبح الاستعارة مهمة في صناعة المفاهيم الإنسانية من خلال كون الاستعارة عملية تقاطع بين مجالين، أحدهما مرتبط بالتجربة الجسدية عند الإنسان، بحيث يصنع الإنسان عددا من أفكاره ومفاهيمه من خلال الاستعارة. ثم جاء المحور الثالث وتحدّث عن مبدأ (تمييز الشكل من الخلفية) في المدرك بصرياً، كاشفاً عن تجلّي ذلك في اللغة الإنسانية سواء في مستوى تركيبها الأصلي أو مستواها الأدبي والبلاغي. وقد اتّضح أن التركيب النحوي ينطلق من فكرة (الشكل والخلفية) من حيث ترتيب عناصر الجملة، أو من حيث اختيار كلماتها. كما أن فكرة الشكل والخلفية تتجلّى في التصور الأدبي الذي يعدّ الشكل اللغوي البارز عن طريق العدول أو التوازي بمثابة الشكل الذي يحظى بالاهتمام، ويجعل العناصر الأخرى بمثابة الخلفية التي تأتي مكمّلة للشكل.

(١) الفلسفة في الجسد، جورج لاكوف ومارك جونسون، ترجمة: عبدالمجيد جحفة، ص ٧٢٠.

المصادر والمراجع

أولاً: المراجع العربية

- إستراتيجيات الخطاب والإقناع (خطب الرئيس السادات نموذجاً)، د.عماد عبداللطيف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢م.
- الاستعارات التي نحيا بها، جورج لاكوف ومارك جونسون، ت: عبدالمجيد جحفة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٦م.
- الاستعارة المرفوضة، دم. أحمد يوسف ، مكتبة الآداب، القاهرة ، ٢٠٠٩م.
- بنيات المشابهة في اللغة العربية، مقاربة معرفية، عبدالإله سليم، دار توبقال، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠١م.
- دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٠ - ١٩٨٩م، ط٢.
- فلسفة البلاغة، ريتشاردز، ترجمة: سعيد الغانمي، ودم. خالد حلاوي، دار إفريقيا الشرق، ٢٠٠٢م.
- اللغة والجسد، الأزهر الزناد، مركز النشر الجامعي، تونس ٢٠١٧م.
- معنى المعنى، ريتشاردز وأوجدن، ترجمة: دم. كيان أحمد حازم يحيى، دار الكتاب الجديد، د.ت.
- الفلسفة في الجسد، جورج لاكوف ومارك جونسون، ترجمة: عبدالمجيد جحفة، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ٢٠١٨م.

ثانياً: الدوريات العربية

- الأسلوبية العرفانية، ترجمة: رضوى قطيط، مجلة فصول ، العدد ١٠٠ المجلد ٢٥/ ٤، صيف ٢٠١٧م.
- انهيار الحاجز بين الدراسات الأدبية واللسانيات، مدخل إلى الشعريات الإدراكية،

مجلة فصول، العدد ١٠٠، الإدراكيات، مارجريت هم. فريمان، ترجمة: محمد سمير عبدالسلام، المجلد ٢٥/ ٤، صيف ٢٠١٧م.

- طبيعة اللسانيات الإدراكية، ففيان إيفانز، وميلاني جرين، ترجمة: عبده العزيزي، مجلة فصول، العدد ١٠٠، المجلد ٢٥/ ٤، صيف ٢٠١٧م.

ثالثاً: المراجع الإنجليزية

- *Cognitive Linguistics and Poetics of Translation*, Elizbeth Tabakowska, Cunter Narr Verlag, 1993.
- *Cognitive Linguistics, An Introduction*, Vyvyan Evans and Melanie Green, Edinburgh University Press Ltd, 2006.
- *Cognitive Linguistics*, William Croft, D. Alan Cruse, Cambridge University Press, UK, 2004.
- *Cognitive Poetics An introduction*, Peter Stockwell, Routledge, London and New York, 2002.
- *Cognitive Poetics in Practice*. Joanna Gavins and Gerard Steen. Routledge. London. 2003.
- *Contemporary Perspectives on Rhetoric*, Sonja Foss and others, Waveland Press, Inc, USA, 2014.
- *Embodied Mind, Meaning, and Reason*, Mark Johnson, The University of Chicago, USA, 2017.
- *Embodiment and Cognitive Science*, Raymond W. Gibbs, Jr, Cambridge University Press, 2005.
- *Embodiment in Cognition and Culture*, John Michael Krois, John Benjamins Publishing, Amsterdam- Philadelphia. 2007.
- *Introduction to Rhetorical Theory*, Gerard A. Hauser, Waveland Press, 2002, Second Edition.
- *Metaphor a Practical Introduction*. Zoltan Covceses. Oxford University Press, Inc, 198 Madison Avenue, New York, 2002.
- *Psychology: A Self-Teaching Guide*, By Frank J. Bruno, John Wiley and Sons Inc, New Jersey, 2002.

- *Rhetorical Theory: An Introduction*. Timothy Borchers, Heather Hundley, Waveland Press, Inc, 2018, USA.
- *Thinking Points: Communicating Our American Values and Vision*, George Lakoff, Farrar, Straus and Giroux, New York, 2006.